

**الطالب الجامعي الجزائري ودرس النحو والصرف :
العلاقة الهشة وإمكانات تمثيلها**

أ. خضر سعداني

جامعة الوادي

الملخص:

الواقع المسلّم به هو أن طلاب المرحلة الجامعية في الجزائر يعانون من الضعف في فهم وتطبيق الدرس النحوي والصرفي. وهو ضعف موروث ومتراكم بدأ رحلته معهم منذ مراحل التعليم السابقة. ونحاول في هذا المقال إضاءة جملة من الزوايا المظلمة التي يتم فيها تقديم الدرس اللغوي، لنُدلي بعد ذلك بما نراه حلوًا استعجاليًا ممكنة، من شأنها إخراج هذا الدرس من نفق الصعوبة إلى فضاء اليسر والجدوى.

The abstract

It is taken for granted that university students in Algeria suffer from the deficiency in understanding and practicing the grammar and inflection lessons. This inherited deficiency has accumulated over their previous stages of education. This study intends to shed light on a set of dark corners in which the language lesson is presented. For that reason, we would like to introduce what we believe as possible urgent solutions that will enable this kind of lesson to shift from the area of difficulty and obscurity to that of facilitation and feasibility.

مدخل:

لا شك أن المتتبع لواقع التدريس النحو والصرف في الجامعة الجزائرية يلاحظ وجود ضعف في مستوى التحصيل الذي يظهر أثره انطلاقًا من نتائج الفروض والامتحانات، كما يلاحظه من منطلق الاستعمال اللغوي للمتعلمين إذا ما راموا التعبير مشافهة أو كتابة.

والذي يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذا الضعف ليس وليد المرحلة أو السنة التي يجتازها الطالب في الجامعة، وإنما هي إرث متراكم ربما بدأ من سنوات التعليم الابتدائي، ورافقه على مراحل المراحل الموالية من التعليم العام إلى أن صب في المرحلة الجامعية. وفي هذه الأثناء يجر معه المزيد من الصعوبات والمشاكل، حتى صارت قواعد اللغة العربية مستغلقة على العقول، مستنكرة من قبل بعض النفوس.

النحو وقيمه:

النحو هو آلة التقويم التي تصحب المتكلم بهذه اللغة، فتهديه إلى الصواب وتنبيهه عن الزلل، فيستقيم له الكلام الذي ينشئه، ويرفض الخطأ الذي يسمعه، ثم يصححه. والنحو هو المدخل إلى دراسة علوم العربية، والعلوم الدينية والإنسانية

وغيرها. ولا جرم أن نصفه بالكنز الذي تركه علماء العربية الأجلاء ومضخرة العرب؛ إذ هو مظهر من مظاهر العقل العربي بما فيه من دقة الملاحظة ، وقدرة على الاستقصاء والتجريد. وقد قيل في فضل وشرف علم النحو:

النَّحْوُ يَصْلَحُ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ ... وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنَ

فإذا طلبت من العلوم أجلاً فأجلها نفعاً مقيم الألسن

وكان العرب في الجاهلية يتكلمون لغتهم على السليقة ، ويصوغون ألفاظهم وجملهم بموجب قانون راسخ في النفس هو ملكة العربية، ويتناقلونها الخلف عن السلف في غير ما حاجة إلى معرفة قواعد صناعية يتمثلونها في خطاباتهم لتحرسهم من اللحن. لكن - ومع مجيء الإسلام - لم يستمر هذا الوضع لما اختلط العرب بالأعاجم ؛ إذ تعرضت الألسن إلى اللحن والفساد. واقتضى الحال أن يضع علماء العربية ضوابط للكلام تصونه من الزلل، فراحوا يستنبطون من كلام العرب الفصحاء قوانين لغوية تصف تراكيب الجمل والكلمات، وتقنن القواعد التي تتحكم في أواخر الكلمات. وكان من ذلك علم النحو الذي يعد العمود الفقري للغة العربية.¹

مقياس النحو في الجامعة الجزائرية:

تُسند وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجزائرية مهمة تدريس علوم اللغة العربية بما فيها علم النحو والصرف إلى قسم اللغة العربية في الجامعات والمراكز الجامعية. كما تسهر الدولة الجزائرية على التكوين العلمي والبيداغوجي للإطارات التي اضطلعت بتدريس هذه العلوم والبحث فيها لترقيتها وتحديثها.

وبحكم انتمائنا إلى أسرة التدريس في هذه الجامعة، وتولينا تقديم هذه المقياس للطلبة، ومعاشرتنا له عددا من السنين، سبقتها مرحلة أطول منها في قطاع التعليم العام، فإنه يمكننا القول بأن الكثرة الكاثرة من المتعلمين يشكون من صعوبة هذه المادة، ويبدون تذمرا شديدا منها، ونسمعهم ينعنونها بالمعقدة والمملة إلى غير ذلك .

ويظهر قصورهم في هذا العلم على المستويين العلمي والوظيفي: في القراءة والكتابة والتعبير والاستيعاب والتواصل، وفي تحصيل علوم اللغة العربية، فنراهم يرفعون المنصوب وينصبون المجرور والمرفوع، وإذا سئلوا إعرابا سموا الفعل اسما والأداة فعلا، والماضي معربا إلى غير ذلك من الأخطاء التي تتصل بأوليات هذا العلم. وقد زادت مشكلة ضعف الطلبة في اللغة العربية وتفشت حتى أصبحت ظاهرة مقلقة من ظواهر التردّي الثقافي والعلمي الذي يلف أمتنا العربية من المحيط إلى الخليج. ولهذا التردّي أسبابه الموضوعية وجهاته المسئولة.

صعوبة النحو قديمة جديدة:

وذلك الأمر الذي نشكوه اليوم هو الداء الذي أخذ يتزايد في عصور ما بعد الاحتجاج حتى اكتثر له علماء العربية أمثال يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت (244هـ) فألف كتابا سماه " إصلاح المنطق ". وأراد به معالجة الداء الذي استشرى في لغة

العرب العاربية والمستعربة، وهو داء اللحن والخطأ في الكلام. وضمنه أبوابا يمكن بها ضبط جمهرة من لغة العرب². وكان كتابه هذا رائدا لكتب أخرى ظهرت بعده تعالج القصور والفساد اللغويين. ومنهم ابن الجوزي (510هـ) الذي لحظ شيوع اللحن في عصره، مما دفعه إلى تأليف كتابه "تقويم اللسان"، حيث قال في مقدمته: "إني رأيت كثيراً من المنتسبين إلى العلم يتكلمون بكلام العوام المرذول جرياً منهم على العادة، وبعداً عن علم العربية، فعزمت على تأليف كتابي هذا".² ويبين من هذه المقدمة خطورة السبب الذي ألجأه إلى تأليف كتابه، وهو استسلام العلماء أنفسهم إلى العامية التي هيمنت على الألسنة وأفسدتها. كما أن ذيوع اللحن في العربية كان سبباً في تأليف ابن منظور (ت 711 هـ) كتابه العظيم: "لسان العرب"، إذ يقول في مقدمته: "وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الألوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايير معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوها في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفتخرون، وصنعتة كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون، وسميته "لسان العرب"³. والسبب الذي لأجله صنف ابن منظور معجمه متعدد الأوجه وأظهرها غلبة العجمة على اللسنة، والعجم على الأوساط الرسمية.

ومن الذين دقوا ناقوس الخطر في العصر الحديث معلنين عن تدهور تدريس اللغة العربية بطرقها القديمة الدكتور طه حسين في كتابه "في الأدب الجاهلي"، الذي رأى "أن لغتنا العربية لا تدرس في مدارسنا، وإنما يدرس فيها شيء غريب لا صلة بينه وبين الحياة، ولا صلة بينه وبين عقل التلميذ وشعوره وعاطفته. وآية ذلك أنك تستطيع أن تمتحن تلاميذ المدارس الثانوية والعالية، وتطلب إليهم أن يصفوا لك في لغة عربية واضحة ما يجدون من شعور أو إحساس أو عاطفة أو رأي، فإن ظفرت منهم بشيء فأنا المخطئ وأنت المصيب! ولكنك لن تظفر منهم بشيء، أو لن تظفر من أكثرهم بشيء، فإن وجدت عند بعضهم شيئاً فليس هو مدينا به للمدرسة، وإنما هو مدين به للصحف والمجلات والأنديت السياسية والأدبية"⁴

وان كلمة الدكتور تنطوي على توصيف الدرس النحوي بأنه غريب عن العصر والمتعلم هيكلاً وروحاً، وأن الدليل على هذا التدهور ملموس، وأن الشيء القليل من النجاح اللغوي الذي يصيبه المتعلم متأث من مصادر أخرى ليست هي المسئول الأول عن تعليم النحو واللغة.

كما يتضح من تبرمه أنه يرفض ما علق بالدرس اللغوي من منطق وفلسفة وتأويل واحتفاء بنظرية العامل، وغياب المناهج الحديثة في تعليم العربية وأدبها، بينما تتقدم مناهج تعليم اللغات وفق النظريات اللغوية الأوروبية الحديثة كما عرفها هو أو اطلع عليها في علاقته باللغة والأدب الفرنسيين.

ويمكننا أن نجتزئ بمقالة الدكتور طه حسين للدلالة بها على أن المشكلة فرضت نفسها في واقع الثقافة والحضارة العربية في هذا العصر. وأننا لسنا في حاجة إلى

المزيد من الأدلة لتأكيد هذه المشكلة. وإنما الذي يتأكد الخوض فيه هو البحث عن الأسباب التي ترتب عليها ضعفُ في تحصيل مادة النحو، ومردود قليل أو هزيل في توظيفه وقطف ثماره، وأحياناً النفور النفسي من المادة.

أسباب ضعف الطلبة في اللغة العربية

لقد تضافرت مجموعة من الأسباب، أورثت أبناء اللغة العربية في عصرنا هذا لغة ضعيفة باهتة على ألسنتهم. كما أورثت المتحدثين بها جملة من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية، ورداءة في الخط، ومشكلات في القراءة الجهرية، وقصوراً في الفهم والاستيعاب.

وان نظرة ماسحة منطلقة من واقع الممارسة الخاصة، ومن بحوث ودراسات التربويين وعلماء النفس والتعليمية، تبين أن أسباب هذه الظاهرة متعددة، ويمكننا تصنيفها كما يلي:

أسباب اجتماعية وثقافية:

انتشار العامية في الوطن العربي.

ثنائية اللغة بين المدرسة، والبيت والشارع.

تراجع دور الإعلام ووسائله المختلفة.

المشهد الثقافي العربي، حيث الهبوط الثقافي العام، وعدم وجود ارتباط وثيق

بمصادر التثقيف الرئيسية أو الغنية وخاصة المواد المقروءة.

ضعف دور الأسرة في تادية واجبةا التربوي التعليمي.

كثرة المسلسلات والتمثيلات وكثير من البرامج الإعلامية باللهجة العامية.

أسباب بيداغوجية:

سيادة النظرة التي تساوي بين تعليم اللغة العربية للمتخصصين في الجامعات،

وتعليم اللغة العربية لأبناء المدارس في مرحلة ما قبل الجامعة.

سوء تصميم المناهج المدرسية⁵ وتسرع الإصلاحات التربوية.

نقصان الكتب المدرسية عنصر التشويق والارتباط بواقع الطلبة وحياتهم

ومتطلباتهم.

تأخر أساليب تقويم الطلبة.

غياب التأهيل الجيد للمدرسين باللغة العربية.

عدم حرص المعلمين على استعمال العربية الفصحى أثناء الدروس.

إهمال الجانب الكتابي في التعليم الابتدائي .

عدم توفر قاموس لغوي حديث في كل مرحلة من مراحل التعليم العام.

الافتقار إلى أدوات القياس الموضوعية في تقويم التعليم اللغوي.

قلة استخدام المعينات التعليمية والتقنيات الحديثة السمعية والبصرية في تعليم

اللغة .

ازدحام منهج النحو بالقواعد، وكثير منها ليس وظيفياً.

بعد اللغة التي يتعلمها الطلبة عن فصحي العصر.
ضعف الربط بين فروع اللغة العربية في التدريس كالإملاء والنحو والبلاغة والأدب والقراءة.

كثرة عدد التلاميذ في الفصل.
اعتماد طلاب أقسام اللغة العربية في مختلف الكليات على المذكرات الخفيفة التي تمكنهم من اجتياز الامتحان فقط وهو ما ينتج طالبا غير مؤهل وغير محب للمادة.
غياب النظرة التكاملية التي تعتمد النص الأدبي الميسر الذي تتداخل فيه وتتكامل المهارات اللغوية من قراءة وكتابة وتحدث واستماع.
أسباب تعود إلى المتعلمين:

اعتماد الطلاب في المذاكرة لمادة النحو على الحفظ دون إعمال العقل .
تخلي الطلاب عن البحث والتعرف علي القواعد النحوية في الكتب والمراجع وتطبيق ذلك من خلال الإعراب للأمثلة حتى يتعودوا علي الصعب، مع القراءة المتأنية للقرآن الكريم والكتب الدينية في الفضائل والأحاديث وغيرها.
عدم جدية الطالب ورغبته في إدراك المهارات الأساسية في اللغة العربية (التعبير والإملاء).

ضعف الطلبة في اللغة العربية في التعليم العام.
تغلب العامية على الفصحى في حصص الدراسة بين المتعلمين.
قلة حصص تعليم اللغة العربية لكثرة المواد، وطول المنهاج.
انعدام المطالعة لضيق الوقت.
معالجة المشكلة اللغوية:

أما معالجة هذا الضعف اللغوي فغير عسيرة طالما أن أسبابه المختلفة حددت.
وكل سبب يكشف عن بعض زوايا المشكلة الكبرى، وهو خير دليل على العلاج الخاص بتلك الزاوية. وللخروج من هذه الأزمة اللغوية نحتاج إلى :
أولاً - وعي بخطورة المشكلة، لأن همم وعزائم المتعلمين لا تنشط ولا تتطلع بصدق إلى التغيير إلا مع التحسيس والتجديد.

ثانياً - التعجيل بالمعالجة، وبتضافر الجهود وتعاون المخلصين والغيورين على هذه اللغة في الأقطار العربية كافة، والاستفادة من تجارب البعض، مع الوعي بأن كل يوم يمر دون علاج يزيد في عمر الأزمة ويعمق أثرها.

ثالثاً- ترجمة جهود الباحثين الجامعيين والمجمعين والعلماء التربويين وغيرهم إلى قرارات سياسية شجاعة، تترجم نتائج هذه الجهود إلى برامج وأنشطة وخطط ترتقي بتعليم اللغة العربية داخل المدرسة، وتهتم بسلامتها خارج المدرسة.

والواقع أن وزارة التربية والتعليم الوطنية تسهر باستمرار على تقديم المناهج المدرسية بصفتها وثيقة هامة تجمع أبعاد العملية التربوية لاشتمالها على الأهداف، ومحتويات الكتب المقررة، والوسائل التعليمية، وطرق التدريس، وطرق التقويم،

والأنشطة غير الصفية. كما تهتم الوزارة بتطويرها عن طريق ربط المقررات الدراسية بنظم المعلوماتية والتقنيات الحاسوبية. وهي لا تسلم من النقد الذي هو مقوم لها وموجه مستمر.

الإمكانات المتاحة للطالب الجامعي للتغلب على الضعف اللغوي:

على الرغم من تنبيهنا في بداية السنة الدراسية على أهم المراجع التي تدعمهم وتأخذ بأيديهم بوصفهم متعلمين يشكون من صعوبات مبدئية ، وعلى الرغم من تقديمنا مضردات البرنامج الدراسي لهم قصد إعداد الدروس أو الاطلاع عليها إن أمكن، وعلى الرغم من تجنبنا لطريقة الإملاء وطلب الحفظ، وعلى الرغم من حرصنا الدائم على مدّهم بالمحاضرات مكتوبة جاهزة لنشغل الحصص المخصصة للمحاضرة بالشرح والنقاش، وعلى الرغم من إمدادهم بمكتبات الكترونية متنوعة ومتعددة المراجع، تكفيهم الكثير من العناء وتوفر لهم الوقت. أقول على الرغم من كل هذه التيسيرات البيداغوجية في سبيل تقديم مقياس النحو والصرف ميسراً موطاً، فإننا لا نزال نجد الهجر من البعض، والضعف في المردودية اللغوية لدى البعض. وفي مقابل هؤلاء توجد كثرة من الطلاب، نراهم في غضون السنة الدراسية، يسألوننا عن المزيد من الكتب اللغوية التي تعتمد منهج الشروح والتطبيقات. وفي هذا مؤشر على وجود درجات من الإقبال على المواد اللغوية واستيعابها.

وعلى أي حال، فإن واقع تحصيل مادة النحو والصرف، وممارستها ميدانياً، يؤشر على أن الظاهرة لا تزال كارثية على التلاميذ والطلبة في الجزائر وغيرها. بل وفي تاريخ اللغة العربية من بعد ذهاب عصر الفصحى.

ومما لا نشك فيه أن الصعوبات التي يشكو منها الطالب الجامعي في مادة النحو والصرف ترجع في الأساس إلى القصور الموروث من أطوار التعليم العام. ولأجل التغلب على هذا الإرث السلبي والخروج منهم ضائقته، فإنه يملك أمامه فرصاً عليه أن يستغلها، وواجبات عليه أن يلتزم بها. وممن ذلك:

- تدرب الطلبة على ممارسة اللغة العربية، كالإلقاء الشفهي للرأي والنقاشات في الحصص المخصصة للعروض العلمية.

حفظ أجزاء من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية، وقصائد الشعر العربي الرصين.

إخضاعهم إلى الامتحانات الشفهية، وعدّ صحة اللسان وسلامته مؤشراً لازماً في التقويم وعنصراً من عناصر النجاح.

حرص الطلاب على استدراك ما فاتهم من تعلم اللغة العربية الوظيفية التي يحتاجها المتعلمون غير المتخصصين في سد مطالبهم اللغوية في الحياة اليومية. ويكون ذلك بالإقبال على كتب التيسير والتجديد التي أسهب الدارسون المحدثون في التفنن فيها، آخذين بعين الاعتبار المعايير المنهجية التي تقدّم التنويه بها، ضمن ذكر أسباب صعوبات الدرس النحوي والنفور منه.

المرور إلى الدرس النحوي الموجه إلى المتخصصين الجامعيين، حيث يكون الدرس النحوي (عن) اللغة العربية، أي عما يحيط بها من أطر تجريدية تضبطها كالأصول والمدارس والعلل والعوامل... الخ وهذه باقية من الكتب النحوية التي تساعد الطالب الجامعي في الفهم والاستيعاب والتمرّن، كما تناسبه بوصفه متخصصا في اللغة العربية :

جامع الدروس العربية. الشيخ العلامة مصطفى الغلاييني.
القواعد الأساسية في النحو والصرف لتلاميذ المرحلة الثانوية وما في مستواها. من تأليف مجموعة من المؤلفين.
القواعد الأساسية للغة العربية. أحمد الهاشمي.
معجم الصواب اللغوي: دليل المثقف العربي. أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل. ظهر في شكلين ورقي وإلكتروني.
معجم القواعد العربية. الشيخ عبد الغني الدقر.
المعجم المفصل في الإملاء. الأستاذ ناصيف يمين.
المعجم المفصل في علم الصرف. الأستاذ راجي الأسمر مراجعة، د. إميل بديع يعقوب.
المعجم الوافي لأدوات النحو العربي. علي توفيق الحمد.
المنجد في الإعراب و البلاغة والإملاء محمد. خير حلواني وبدر الدين حاضري.
الموجز في قواعد اللغة العربية. سعيد الأفغاني
النحو العصري دليل مبسط لقواعد اللغة العربية. سليمان فياض.
النحو الواضح (التعليم الابتدائي). مصطفى أمين وعلي الجارم.
النحو الوافي. عباس حسن.
النحو الوظيفي. عبد العليم إبراهيم.
النحو الوظيفي لطلبة الجامعات. الدكتور عاطف فضل.

ونقدّم فيما يلي تعريفين بكتابين مما عرض في الباقية أعلاه، ليتجلى ما بلغته طرق عرضهما من وعي بلب المشكلة وسعي صادق وحكيم في إفادة التلميذ والطالب، واختصار لجهوده ووقته، وإغراء له بلغته واستخدام صحيح لها. ومما ننصح به طلبتنا، أن يتخذوا من الكتاب التالي ونحوه مرجعا يوميا، يعودون إليه، استكمالاً لما ينقصهم أو فاتهم من موضوعات لغوية في مرحلة التعليم العام، أو استذكّارا لما قد طواه النسيان، ويخشى انطماس تأثيره في أثناء الاستخدام الوظيفي

لغة العربية خطابة أو كتابية. كما أنه مرجع ميسر وشامل لجميع المثقفين على اختلاف دراساتهم يستعينون به على مشكلات التعبير.

وهذا الكتاب هو "القواعد الأساسية في النحو والصرف لتلاميذ المرحلة الثانوية وما في مستواها"، من تأليف مجموعة من الأساتذة الباحثين (وهم: يوسف الحمادي، ومحمد محمد الشناوي، ومحمد شفيق العطا - طبعة 1995 - القاهرة).

ويعود نصحننا به إلى كونه يتصف بالمزايا المنهجية التي تقرب من الغاية الأساسية المتمثلة في إكساب التلميذ والطالب المعارف اللغوية الوظيفية التي تُصلحُ اللسان والقلم. وبإمكاننا استخلاص مزايا المنهجية انطلاقاً من المقدمة التي تصدرته، وهي كما يلي:

يقدم خلاصة الدراسة النحوية بدقة، وخلو من الشوائب.

جمع الأبواب النحوية والصرفية الأساسية التي يركز عليها الاستخدام الوظيفي للغة، فيتمكن القارئ والدارس من التحدث حديثاً صحيحاً، ويكتب كتابية سليمة، ويصرف الألفاظ، ويضبط بنية الكلمات.

ساق المادة اللغوية بتدرج: فبدأ بركائز أبواب النحو كأنواع الكلمة وخصائصها، والإعراب والبناء، ومنها إلى الجملة ووظيفة الكلمة فيها وما يطرأ عليها من ألوان الضبط الإعرابي، حتى إذا اتضح هذا

الأساس، جاء بالمرفوعات ثم المنصوبات، ثم التوابع، ومواقع الجمل، ثم ببعض الأساليب التي تمثل بعض الأنماط التركيبية في العربية. ثم انتهى بالإلمام بالضروري من قواعد التصريف. ثم اختتم الكتاب بطريقة الكشف في المعاجم، وعلامات الترقيم في الكتابة.

وحرص هذا المنهج على الجمع بين الموضوعات التي تربطها علاقات مشتركة كالجمع بين أساليب الغراء والتحذير والاختصاص، والجمع بين تمييز العدد، وصور العدد، وتذكير العدد وتأنيثه، وإعرابه وبنائه وكناياته والعدد الترتيب إلى غير ذلك. وراعى أن تعرض القاعدة ميسرة مركزة موضحة بالأمثلة مستندة إلى أصح الأقوال، متجنبة الخلافات والآراء المتعددة.

انتقى الأمثلة فجاء بها حية واقعية، مرتبطة بالماضي والحاضر، خصبة بما تحمل من حقائق وقيم، وبما ترسمه من مثل خلقية وسلوكية.

تنوعت النصوص من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومأثور القول شعراً ونثراً، إضافة إلى الجديد المتصل بحياتنا المعاصرة في مختلف ميادينها.

عرض الفهرسُ الأبوابَ في شكل عناوين جزئية تفصيلية تيسر الوصول إليها في مظانها من الكتاب.

10. اشتمل الهامش من الكتاب على ما يكمل صلبه بالشروحات ونسبة النصوص

إلى قائلها، وذكر السور وأرقام الآيات، وإعراب ما تقتضي الضرورة إعرابه.⁶

وننصح أيضا بالرجوع إلى كتاب "النحو الوافي مع ربطه بالأساليب الرفيعة، والحياة اللغوية المتجددة" للأستاذ عباس حسن، لأنه يستجيب لأغلب ما تطمح إليه الجهود التيسيرية والتجديدية المعاصرة. وقد سجل الأستاذ عباس حسن في مقدمته منهجه الجديد، وبيان ذلك أنه: كتاب جديد في النحو جامع لأبوابه، مستفيد من أغلب كتب النحو القديمة والحديثة، ومغن عن العودة إليها.

وأن النحو في عصر النهضة الحديثة التي يتخذون مطلع القرن التاسع عشر مبدأ لها، قد زاحمت العلوم العصرية فقهرته، وخلفته وراءها مبهورا. وإذا أوقاتهم لا تتسع للكثير بل للقليل مما حواه. وأظهر مواد ذلك الدستور الذي أسس عليه الكتاب، نذكر بعضها:

1- تجميع مادة النحو كله في كتاب واحد ذي أجزاء أربعة كبار، على أن يقسم كل جزء قسمين، تقسيما فنياً بارعا. أحدهما موجز دقيق يناسب طلاب الدراسات النحوية، بالجامعات - دون غيرهم - غاية المناسبة، ويوفيهما ما يحتاجون إليه غاية التوفية الحكيم التي تسير مناهجهم الرسمية، ومكانه أول المسائل، وصدرها. ويليه الآخر - بعد نهاية كل مسألة - بعنوان مستقل هو: "زيادة وتفصيل"؛ ويلائم الأساتذة والمتخصصين أكمل الملائمة وأتمها.

2- العناية أكمل العناية بلغة الكتاب وضوحا، وإشراقا، وإحكاما، واسترسالا؛ فلا تعقيد، ولا غموض، ولا حشو، ولا فضول، ولا توقف لمناقشة لفظ، أو إرسال اعتراض، أو إجابة عنه؛ ولا حرص على أساليب القدامى وتعبيراتهم. إلا حين تسيرنا في البيان الأوفى، والجلاء الأكمل.

3- اختيار الأمثلة ناصعة، بارعة في أداء مهمتها؛ من توضيح القاعدة، وكشف غامضها في سهولة ويسر، واقتراب، لهذا تركت كثيرا من الشواهد القديمة، المترددة بين أغلب المراجع النحوية، وينصح الأستاذ بأنه في القراءة الحرة، والاطلاع على مناهل الأدب الصفو - متسع للأدباء والمتأدبين؛ يشبع رغبتهم، من غير أن يضيع عليهم ما يرغبون من دراسة النحو دراسة نافعة، لا تطغى على وقت رصدته النظم التعليمية الحديثة لغيرها، ولا تنتهب جهدا وقفته الحياة المعاصرة على سواها.

4- الفرار من العلل الزائفة، (كذهاب النحاة المتأخرين إلى القول بأن البناء في الأسماء معلل بمشابهتها للحرف)، وحسبنا من التعليل: أن يقال: المطابقة للكلام العربي الناصع.

5- تسجيل أبيات: "ابن مالك" كما تضمنتها "ألفيته"، المشهورة، وتدوين كل بيت في أنسب مكان من الهامش، بعد القاعدة وشرحها، مع الدقة التامة في نقله، وإيضاح المراد منه؛ في إيجاز مناسب وقد دعانا إلى تسجيل أبيات: "ابن مالك" - في الهامش - ما نعلمه من تمسك بعض المعاهد والكلديات الجامعية بها، وإقبال طوائف من الطلاب على تفهمها، والتشدد في دراستها واستظهارهم كثيرا منها للانتفاع بها حين يريدون. وقد تخيرنا لها مكانا في ذيل الصفحات، يقربها من راغبيها، ويبعدها من الزاهدين فيها.

7- الإشارة إلى الصفحة السابقة أو اللاحقة، وتدوين رقمها إذا اشتملت على ماله صلة وثيقة بالمسألة المعروضة؛ كي يتيسر لمن شاء أن يجمع شتاتها في سهولة ويسر، ويضم - بغير عناء - فروعها وما تفرق منها في مناسبات وموضوعات مختلفة.

8- ترتيب أبواب الكتاب على النسق الذي ارتضاه ابن مالك في "ألفيته" وارتضاه كثيرون ممن جاءوا بعده، لأنه الترتيب الشائع اليوم، وهو فوق شيوعه - أكثر ملاءمة في طريقته، وأوفر إفادة في التحصيل والتعليم للراغبين في المعرفة العامة أولاً فأولاً؛ فالمبتدأ يلازمه الخبر أو ما يقوم مقامه، وقد يكون الخبر جملة فعلية، أو شبه جملة، والفاعل لا بد له من فعل أو ما يقوم مقامه. والمفعول لا بد له من الاثنين... فكيف يتعلم الراغب أحكام المبتدأ وحده، أو الخبر وحده، أو الفعل أو الفاعل كذلك؟

9. وجاء القسم الموجز منه موجهاً إلى طلبات الدراسات النحوية والصرفية بالجامعات، والمفضل للأساتذة والمتخصصين.

بين التجديد والتيسير:

وإننا لا ننصح طلبتنا الذين ينشدون الدراسات النحوية والصرفية الوظيفية أن يتوجهوا إلى الكتب التي تتضمن محاولات التجديد، إلا في مرحلة متقدمة من الدراسة والتخصص؛ لما في هذه المحاولات من اختلاف واختصارات أو تعقيدات. وأن يلتزموا بكتب التيسير التي نبهنا إليها، وبغيرها من الكتب مما يدور في فلکها.

ويبدو أن الحاجة إلى التمييز بين التيسير والتجديد صارت ملحة، وكذا معرفة طبيعة الفئة التي تنادي بهذا أو ذاك .

يجمع النحاة المحدثون على صعوبة النحو، لكنهم يتفاوتون في كيفية معالجة هذه الصعوبة، فالمحافظون والمشتغلون في الحقل التربوي أمثال الشيخ أحمد الغلاييني والسيد أحمد الهاشمي وعباس حسن يرون أن التيسير هو الذي يضمن لنا نحواً سهلاً، تخف مؤونته على المتعلم، وتقرب مسأله من فهمه. وهؤلاء يرون أن التيسير لا يمس النحو في صورته القديمة، ولا يمتد إلى أصوله ومصطلحاته، وإنما يقتصر على الحذف والاختصار وإعادة ترتيب الأبواب والموضوعات، ثم تمهيد ما توعد منها، وتقريب ما نأى عن متناول الطالب.

أما الدارسون المجددون أمثال إبراهيم مصطفى ومهدي المخزومي وتامر حسان فيرون أن التيسير بمفهومه السابق لا يحل مشكلة النحو، ولا يقضي على مصادر الصعوبة فيه، ولذا فهم يشترطون أن تسبق التيسير خطوة جريئة تتوخى إحياء النحو أو إصلاحه أو تجديده. فإذا تمت هذه الخطوة أعقبتها خطوة ثانية، هي: انتخاب ما يصلح من هذا النحو الجديد للتعليم، ثم تقديمه بأساليب تعليمية حديثة. وإن هؤلاء الدارسين ينظرون إلى الإحياء أو الإصلاح أو التجديد على أنه مهمة لغوية عامة، وأما التيسير فهو في رأيهم مهمة تربوية خالصة، كما أن الإصلاح أو التجديد في رأيهم، لا بد أن يفرض على بلوغه.

نسأل الله أن يوفقنا وطلبتنا إلى سبل الهدى، وأن يجعلنا ممن يكتب لهم أجر في سبيل خدمة العربية لغة القرآن العظيم.

الهوامش والتعليقات:

- القواعد الأساسية للغة العربية حسب منهج متن الألفية، أحمد الهاشمي، دار الفكر، بيروت لبنان، ص4.
- 2- صلاح المنطق، ابن السكيت، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط4، دار المعارف، القاهرة، 12/1.
- 3- تقويم اللسان، ابن الجوزي، تح: عبد العزيز مطر، القاهرة، 1966.
- 4 لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، تح نخبة من العلماء، د. ط. د. ت، ص12.
- 5- في الأدب الجاهلي، طه حسين، ط3، القاهرة، 1933، ص7-8.
- 6- فمما يؤخذ على مناهج تعليم اللغة العربية عموماً عجزها عن بث الاعتزاز في نفوس الطلبة بلغتهم العربية والشعور بقوتها ومرونتها وجمالها وحيويتها وقدرتها على استيعاب التطورات العلمية والتقنية الحديثة. كما يؤخذ عليها أنها لا تولي اهتماماً كافياً بتنمية مهارات الطلبة اللغوية وتعويدهم على ممارسة اللغة واستخدام مفرداتها وصيغها المكتسبة بشكل فعلي مباشر مما يساعد على تقويم أسنتهم، وتصحيح أفلامهم، وتنمية قدراتهم ومواهبهم الكتابية والخطابية.
- 7- لقواعد الأساسية في النحو والصرف لطلاب المرحلة الثانوية، يوسف الحمادى وآخرون، وزاره التربية والتعليم، القاهرة- مصر، 1994، ص2-4.
- 8 النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط3، 1 / 12-1، بتصرف.